(٤٤)

التعلم الذاتي ؟

ما التعلم الذاتي؟

التعلـــم الـــذاتي "Self-learning" أو التعلـــيم الـــذاتي "Self-instruction" يرتبط ارتباطًا وثيقًـا بـالتعليم المسـتمر "Continuing" أو الـتعلم مـدى الحيـاة "Life long" .

وارتباط التعلم الذات بالتعلم المستمر ارتباط عضوي حيث أن التعلم الـذاتي أحد أشكال التعليم المستمر الذي يأخذ عدة أشكال منها :

التدريب في أثناء الخدمة ، والتعليم بالمراسلة ، وبرامج تعلـيم الكبـار بصـفة عامة .

ونود أن نشير في البداية إلى أن المصطلح الأساسي في هذه الورقة أخذ شكلين هما :

التعلم الذاتي ، والتعليم الذاتي فمن قال بالأول نظر إلى أن عملية التعلم تـتم تلقائيًا بذات الفرد ، ومن قال بالثاني نظـر إلى الموقـف التعليمـي كليـة ، وكـان المتعلم جرد من نفسه شخصًا آخر يقوم بتعليمه ، وأيًا كان التبرير فإننـا نميـل إلى التعبير الأول (التعلم الذاتي) حيث أنه أشمل من الثاني فحـين يـتعلم الفـرد (أي يكتسب نمطًا معينًا من السلوك أو يغـيـر سلوكًا خاصًا) يـكـون قـد مـــر ـ تلقائياً ـ بعملية تعليم ذاته .

وقد عرَّف « ديكسون Dickinson» التعلم الذاتي بقوله :

« يشير التعلم الذاتي إلى تلك المواقف التي يقوم فيها المتعلم وحـده أو مـع غيره بالعمل أو بالتعلم دون توجيه مباشر من المعلم» .

وقد يكو ن هذا الاستقلال في درس أو في عدة دروس أو في مقرر كامل .

وهناك نوعان أساسيان من التعلم الذاتي ، النوع الأول يرتكز على المتعلم ، والنوع الثاني يرتكز على المادة .

أما النوع الأول : فالمتعلم يقوم بعملية التعلم للمقررات الدراسية دون ضبط لها أو دون تدخل إطلاقاً من المعلم .

أما النوع الثاني : فالمدرس أو مخطط المنهج ينظم المادة الدراسية تنظيمًا معينًا في أطر متتابعة يعتمد كل إطار على فكرة رئيسة وعلى مجموعة من المثيرات أو الأسئلة ، يتلوها في مكان معين الاستجابات أو الإجابات ، وهذا ما يطلق عليه « التعليم المبرمج » "Programmed Instruction" .

وهذان النوعان من التعلم الذاتي ليسا متضاربين وليس أحدهما بديلاً عن الآخر لكنهما يعملان معًا لتحقيق ما يطلق عليه « يتحمل المتعلم مسئولية تعليم ذاته » .

صحيح أن كلاً منهما له مواقف خاصة ليس هنا مجال عرضها .

والرسم التالي يبين بدقة العلاقة بين هذين النوعين الخاصين بالتعلم الذاتي :

التعلم الذاتي

المعتمد على المتعلم أساسًا	**المعتمد على تنظيم المادة تنظيمًا معينًا**
وفي هذا النوع مسئولية أكبر على المتعلم في اتخاذ القرارات وفي إدارة عملية التعلم (Autonomy)	(كثير من التوجيهات الخاصة بالتعلم وتنظيمه موجود في المادة الدراسية (Programmed Instruction) التعلم المُبرمَج

وعلى أية حال فإن التعلم الذاتي يرتبط أساسًا بالمسئولية في عملية التعلم ، والأفراد الذين ينخرطون في هذا النوع من التعلم تُلقَى عليهم بعض المسئولية التي يقوم بها المعلمون في نمط التعليم التقليدي .

ومما ينبغي أن نلفت النظر إليه هنا هو أن التعلم الذاتي ليس درجة واحدة أو مستوى واحد ، فقد يكون في درس ، أو في عدة دروس ، أو في مقرر . .

وقد يكون التعلم الذاتي جزءًا من حزمة يجمع بين التعليم التقليدي والاستقلال في التعلم .

وهناك مصطلح آخر يرتبط بمصطلح التعلم الذاتي وهو مصطلح التعليم الفردي : Individualization .

ويُستخدَم هذا المصطلح بمعنيين يجمعان ما سبق أن ذكرنا بالنسبة لجانبي التعلم الذاتي فالبعض يرى أن التعلم الفردي هو تلك المواقف التي يقابل فيها المتعلمون بعض المواد التي أُعِدَّت إعدادًا خاصًّا ، والبعض الآخر يستخدم التعليم الفردي ليصف مواقف التعلم التي تعتمد اعتمادًا كليًّا على المتعلم .

وعمومًا ، يهتم التعليم الفردي أساسًا بالفروق الفردية بين المتعلمين دون الاعتماد كثيرًا على استقلالية المتعلم ؛ ففي التعلم الفردي يوجه كل طفل إلى تحقيق أقصى ما يمكنه بقدر طاقته ويتم هذا التوجيه عادة من قبل المعلمين وفي هذه الحال تكون حاجات المتعلمين قد حُدِّدَت وبناء على هذا التحديد يختار المواد التعليمية .

والخلاصة :

أن التعلم الذاتي قد يعني أن يقوم المتعلم بالتعلم منفردًا ولكن من الأفضل أن يُعرف التعلم الذاتي : بأنه الموقف الذي يحتمل فيه المتعلمون جوًّا من المسئولية في تعليم ذواتهم ، وقد يعني - أيضًا - استخدام المتعلم للمواد المصممة لترشيده في كل خطوة من خطوات التعلم ، وتترك له قليلاً من الحرية في الاختيار ، ويمكن أن يُعرَّف التعلم الذاتي بأنه ذلك الموقف الذي يصمم فيه المتعلم مقرره الخاص ، ويتخذ القرارات بشأن الوقت والكيفية التي يقوم بها .

والسؤال الذي يطرح نفسه تلقائيًّا هنا هو :

لماذا التعلم الذاتي؟

الإجابة عن هذا السؤال يشير إلى أن هناك خمسة أسباب رئيسية وعدة أسباب فرعية وراء الاتجاه نحو التعلم الذاتي والشكل يبين هذه الأسباب .

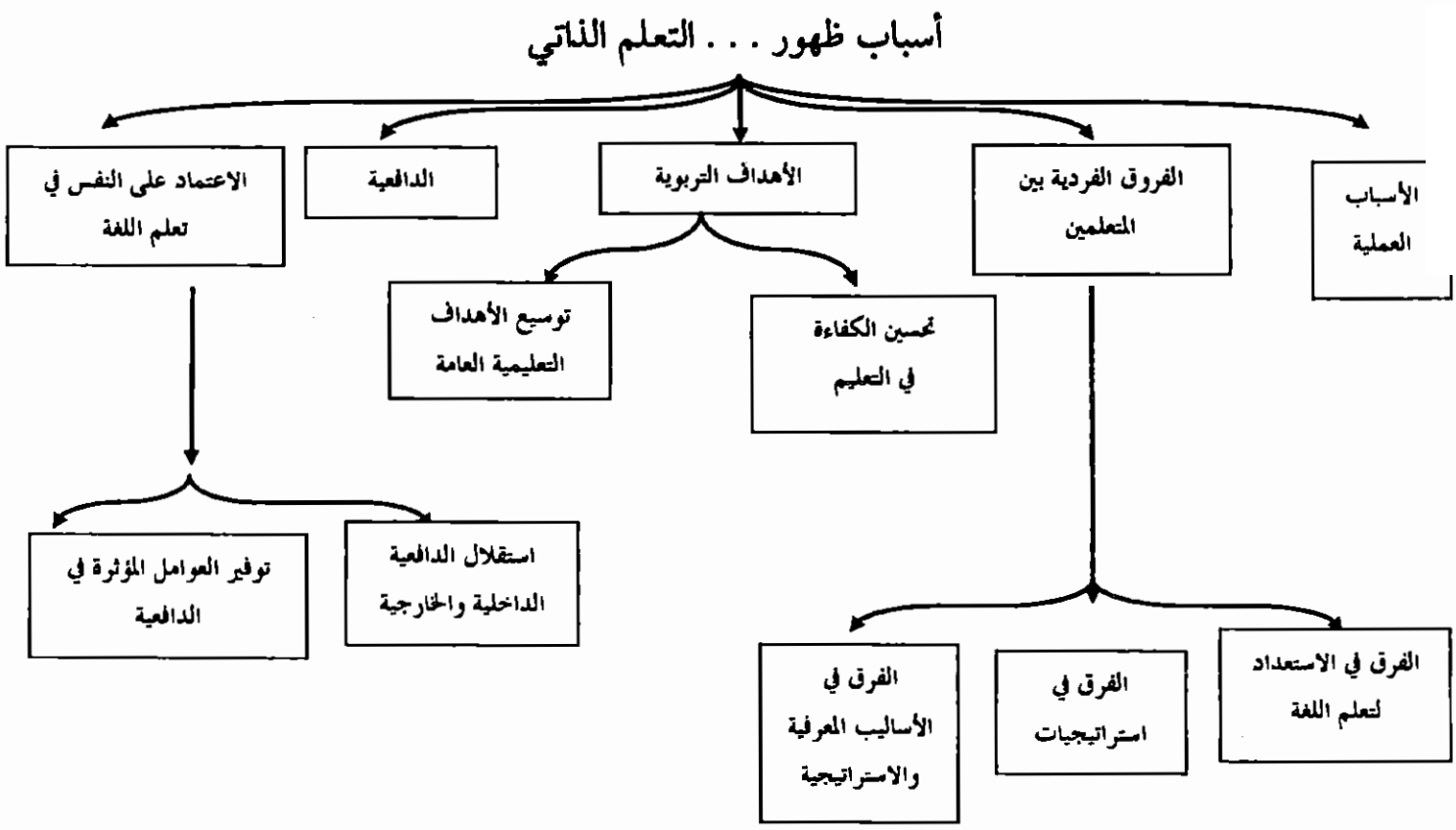
أسباب ظهور . . . التعلم الذاتي
الأسباب العملية
الفروق الفردية بين المتعلمين
الأهداف التربوية
الدافعية
الاعتماد على النفس في تعلم اللغة
توسيع الأهداف التعليمية العامة
تحسين الكفاءة في التعليم
الفرق في الاستعداد لتعلم اللغة
الفرق في استراتيجيات
الفرق في الأساليب المعرفية والاستراتيجية
استقلال الدافعية الداخلية والخارجية
توفير العوامل المؤثرة في الدافعية

وفيما يلي نتناول تلك الأسباب العامة والتفصيلية :

أما الأسباب الخمسة الرئيسية فهي :

١- الأسباب العلمية .

٢- الفروق الفردية بين المتعلمين .

٣- الأهداف التربوية .

٤- الدافعية .

٥- الاعتماد على النفس في تعلم اللغة .

وسنقدم فيما يلي شرحًا مختصرًا لهذه الأسباب الخمسة الرئيسية وما يرتبط بها من أسباب فرعية :

- أما الأسباب العملية فالمقصود بها تلك التي تدعو المتعلم لأن يترك الدراسة ؛ كحاجته إلى المال ، أو عدم قدرته على الحضور إلى المدرسة لعائق ما ، كأن يعمل عملاً يضطره إلى الحضور جزءًا من الليل أو النهار كذلك من الممكن أن تكون المقررات المادية التي تُطرَح في المدارس لا تُناسِب الأهداف التي يسعى إليها المتعلم .
- والسبب الرئيس الثاني هو الفروق الفردية بين التلاميذ فهناك فروق في الاستعداد لتعلم اللغة ، وهناك فروق في المقررات الفكرية كما أن هناك فروقًا في الاستراتيجيات الخاصة بالتدريس ، ولمواجهة هذه الفروق الفردية وُجِد ما يُسمَّى بالتعلم الذاتي حيث أنه يسمح لكل متعلم بأن ينمو بقدر طاقته إلى أقصى ما تتيحه له ، ومن هنا كان الاتجاه إلى تفريد التعليم "Individualization" في اللغات في سبعينيات هذا القرن .

ومن المعروف أن بعض التلاميذ يتعلمون بسرعة أكثر من الآخرين ، ومن هنا لابد من استراتيجيات مختلفة لمواجهة هذه الفروق ، وتعني الاستراتيجيات الأنشطة والوسائل التي تؤدي إلى التعلم .

كذلك فإن بعض المتعلمين يختلفون في النمط الفكري العام والخاص الذي يستخدمونه في التعلم ؛ ولذلك قد يحتاج بعض التلاميذ إلى استخدام طريقة معينة بينما يحتاج البعض الآخر إلى طريقة أخرى ، ومن ثَمَّ يمكن القول :

أنه ليست هناك طريقة مثلى في كل المواقف بالنسبة لكل التلاميذ .

- والسبب الثالث هو الأهداف التربوية أو المقاصد التربوية ؛ ويتعلق هذا السبب بأمرين أساسيين يتعلق أحدهما بكفاءة التعلم ، ويتعلق الثاني بالأهداف التربوية الأكثر عمومية ، مثل تحقيق الاستقلال وتحقيق التربية المستمرة .

ومعنى ما سبق أن التعلم الذاتي « يحقق للمتعلم قدرة فعالة على التخطيط وقدرة أكاديمية ، كما ينمي لديه اتجاهًا إيجابيًا نحو ما يتعلمه؛ وذلك بتشجيعه على أن يكون له دور أكبر في التعلم ، وعلى هذا يصبح المتعلم واعيًا بما يتعلم ، أو يقرأ ومن ثَمَّ تُوجَد لديه الدافعية في التعلم» .

كذلك فإن التعلم الذاتي من أهم أسبابه أنه يؤدي إلى استقلال العوامل الوجدانية "Affective factor" والعوامل الوجدانية ذات أثر مباشر على تعلم اللغات بصفة خاصة كما أثبتت ذلك كثير من البحوث ، ويُعنَي بالعوامل الوجدانية اتجاهات المتعلمين نحو اللغة التي يتعلمونها وتُستَخدَم العوامل الوجدانية ـ غالبًا ـ في مقابلة العوامل التعليمية ، ويرى كثير من الباحثين أن من أهم عوامل النجاح في تعلم اللغة توافر الاتجاهات نحو هذه اللغة .

علاوة على ما سبق فإن التعلم الذاتي يؤدي إلى تحقيق أمرين آخرين في غاية الأهمية ؛ وهما هدفان تعليميان عامان :

١- تحقق الاستقلال والذاتية . "Autonomy"

٢- تحقيق الاتجاه نحو التعلم المستمر . "Continuing Instruction"

والاستقلال في التعلم يُعدُّ من الآن فصاعدًا من أهم ما ينبغي أن يعمل النظام التعليمي على تحقيقه ؛ لأنه الوسيلة الفعالة والدائمة في تنمية إنسانية الإ[illegible] وتنمية قدرته على التفكير واتخاذ القرارات الجيدة .

وأما بالنسبة لتحقيق الاتجاه نحو التعليم المستمر (Continuing Instruction) فهناك كثير من العوامل التي تدعو إلى هذا الاتجاه في المجتمعات الحديثة ومن أهم هذه العوامل :

الضغوط الاقتصادية والاجتماعية والفردية ، كذلك هناك التغيرات التكنولوجية السريعة ، ولعل من أهداف النظام التعليمي في أية دولة هي بناء المهارات الأساسية للتعلم الذاتي والتعليم المستمر لدى المتعلمين ، إذا لم يعد في مقدور المؤسسات العلمية أن تقدم إلى المتعلمين كل ما يرتبط بالمتغيرات السريعة والحياة المعاصرة .

أما بالنسبة للسبب الرابع للتعلم الذاتي فهو الدافعية (Motivation) وبين الدافعية والتعلم الذاتي علاقة معقدة وتحتاج إلى تحليل ودراسة ، وتشمل الدافعية اتجاهات المتعلم نحو أصحابها وأهدافه من تعلم هذه اللغة ، كما يؤثر في الدافعية العوامل الوجدانية (الميول) والحوافز أو التعزيزات والشعور بالرضا .

وآخر الأسباب الرئيسة للتعلم الذاتي هو تعليم الناس كيف يتعلمون ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يقوم الفرد نفسه بتدريب ذاته على التعلم ونجاح أية مدرسة لا يقاس بمدى ما خططه المتخرجون من معرفة ، بل بمدى ما لدى هؤلاء من مهارات يستطيعون استخدامها في تحصيل أكبر قدر من المعارف ولذلك لما قيل لأحد المفكرين : إن فلانًا قد حفظ كتاب الأغاني للأصفهاني قال : لقد زادت نسخة من كتاب الأصفهاني ؛ أي أنه لم يولد مفكر ولا عالم ولا مبتكر ، ولا شك أن العوامل الأربعة السابقة :

- الأسباب العلمية .
- الفروق الفردية بين المتعلمين .
- الأهداف التربوية .
- الدافعية

تؤدي تلقائيًا إلى تحقيق هذا السبب الخاص من أسباب التعلم الذاتي (تعليم الناس كيف يتعلمون) .

وهناك أنواع كثيرة للتعلم الذاتي منها :

- استقلال المتعلم تمامًا عن المعلم .
- استقلال المتعلم جزئيًا عن المعلم .
- قيام التلاميذ كلهم بالتعلم عن المعلم .
- قيام البعض بالتعلم الذاتي .
- أجزاء التعلم ـ الذاتي في كل المادة . . . إلخ .
- تصنيف التعلم الذاتي بحسب المستوى التحصيلي أو العقلي للتلاميذ ، فهناك برنامج للتلاميذ الممتازين ، وآخر للمتوسطين ، وثالث للبطاء .

وخلاصة القول هنا : أننا إذا لم نكن واعين بنوع التعلم الذاتي الذي نريد فإنه يكون من غير الممكن أن نقول شيئًا ما عن المواد المفيدة أو المناسبة .

ثالثًا : متى بدأت فلسفة التعلم الذاتي؟

يُرجع كثير من الباحثين فلسفة التعلم الذاتي إلى مدارس التربية الحديثة التي بدأت مبكرة منذ نهاية القرن التاسع عشر على يد « ديوي» وزملائه ولم يكن مصطلح « التعلم الذاتي» آنذاك لكن كان التركيز في ذلك الوقت على استغلال دافعية التلميذ في التعلم في توجيهه إلى تغيير سلوكه علاوة على الاعتماد كلية على نشاطه وإيجابياته في الموقف التعليمي .

وقد ظهر مصطلح « التعلم الذاتي» متأخرًا في الخمسينيات وما تلاها بعد أن اتجه « سكنر» وزملاؤه إلى ما يسمى بالتعليم المبرمج ، والاهتمام بالتغذية المرتدة ، "Feedback" .

علاوة على اتجاه المدرسة السلوكية وعلى رأسها « سكنر» إلى التعلم الذاتي تمثلان أحد أشكاله وهو التعليم المبرمج فإن ازدياد المعرفة واتساع آفاقها

وزيادة وقت الفراغ وتعقد المجتمعات الحديثة أدت كلها إلى ظهور الأشكال المختلفة للتعلم الذاتي ، وقد ذكرت «ليزلي» في كتابها القيم «التعلم الذاتي في مجال تعلم اللغة أكثر من عشرة نماذج للتعلم الذاتي .

وقد تبنت مدارس كثيرة في أنحاء مختلفة من العالم هذا الاتجاه ؛ لذلك ظهر ما يسمى في الولايات المتحدة الأمريكية ما يسمى بالمدارس المفتوحة "Open Schools" أو التربية الحرة "Free education" وفي هذا النوع من المدارس ، وفي هذا النوع من التربية تُقسَّم المقررات عدة تعيينات "Assignments" وفي كل تعيين تحدد أهدافه ووسائل تحقيقه والأفكار والحقائق المهمة ، كذلك يشتمل التعيين على وسائل التقويم الخاصة .

وعلى كل تلميذ أن يدخل المدرسة متى شاء ويخرج منها أيضًا متى شاء وعليه أن يجلس في فصل المادة أو فصل المادة المعينة وهناك يجد المدرسين مستعدين للإجابة عن أسئلة الطلاب في التعيينات التي لديهم .

والطالب ينتقل من تعيين إلى آخر منفردًا أي غير مرتبط بأحد من أترابه وحين ينتهي من كل التعيينات المكونة للمادة يقوم المعلم باختباره فيها ، ليسمح له بعد ذلك بالانتقال إلى مستوى آخر من الدراسة أو بعدم الانتقال .

خلاصة هذا الاتجاه أن التدريس قائم كلية على «التعلم الذاتي» والمدرسون يقومون ـ فقط ـ بدور المرشد والموجه إذا احتاج الطلاب إلى ذلك .

ومثل هذا فعلت «باركهرست» في طريقتها المعروفة باسم «طريقة دالتون» إذ قسمت المواد إلى تعيينات وجعلت لكل مادة معملاً "Laboratory" يجلس فيه جميع المعلمين الذين يقومون بتدريس المادة المعينة .

غير أن التلاميذ في طريقة «دالتون» ملتزمون بجدول زمني معين ، وهم جميعًا يسيرون معًا ، ويقومون معًا ويبدءون الدراسة معًا ، وليس من حقهم الخروج أو الدخول متما يشاءون كما في نموذج المدارس الحرة .

لكننا نستطيع أن نقول إن التعلم الإسلامي سبق الغرب في هذا المضمار بما لا يقل عن ألف عام .

وقد كان جزءًا كبيرًا من التعليم يجري بطريقة فردية في الكتاتيب والمساجد والمدارس فيما بعد .

والكُتَّاب يعتبر في نظر كثير من الدارسين المرحلة الأولى من المراحل التعليمية في الإسلام ، يليه المسجد في مرحلة متأخرة نسبيًا ثم المدرسة التي بدأت بالمدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٥٧ هـ .

وتتحد خصائص التعليم في الإسلام وكما حددها كثير من الباحثين مثل «الأهواني» وغيره في :

١- الإنسانية . ٢- الفردية . ٣- الاستمرارية .

٤- الحرية . ٥- الديمقراطية .

ويهمنا من هذه الخصائص ما يتصل بموضوع التعليم الذاتي ، هذه الخصائص هي : الفردية ، الاستمرارية ، والحرية .

وسنتناول هذه الخصائص هنا باختصار لنبين إلى أي حد كان لعلماء التربية في الإسلام فضل السبق في أهم الاتجاهات الحديثة في التربية ومنها على سبيل المثال : التعلم الذاتي .

والمقصود بالفردية هنا مراعاة طالب العلم كفرد له قدراته واستعداداته وميوله ، وهذه لها تأثيرها المباشر على تحصيله وعلى ما ينتفع به من العلم الذي يحصله ، وتطبيق هذه الفردية في التعليم الإسلامي كان يأخذ عدة أشكال نذكر منها ما يليك

١- أنه ليس هناك وقت محدد للدراسة ولم تكن هناك سنة متبعة في ذلك ؛ [illegible] نطنة ولي الأمر لتحديد وقت استعداد من في رعايته

من الأبناء لبدء التعلم . أما فيما بعد مرحلة الكُتَّاب من مراحل ، فالأمر متروك تمامًا لرغبة المتعلم وظروفه الاجتماعية والاقتصادية . . . إلخ .

٢- أن الطفل كان يتلقى في الكُتَّاب تعليمًا خاصًّا يتناسب مع قدراته كما يتناسب مع مستويات تحصيله ، فالمعروف أن معلم الكُتَّاب كان يقسم الصبيان بحسب قدراتهم التعليمية ، وبحسب مستويات التحصيل وبهذا يُتَاح لكل صبي تحقيق أقصى تقدم ممكن نتيجة قدراته واستعداداته بصرف النظر عن قدرات أترابه أو رفقائه في الكُتَّاب من يحفظ القرآن وهو ابن سبع ، ومن يحفظه وهو ابن عشر ، ومن يتأخر عن ذلك بقليل أو كثير .

وكذلك كان الحال في حلقات المساجد فطلاب العلم كان لكل منهم الحرية ـ كل الحرية ـ في تحديد الحلقة التي يريد أن يدرس فيها ، لقد كان الانتقال من حلقة إلى أخرى أو من درس إلى آخر مرتبطًا أساسًا بقدرة الطالب على التحصيل أو على الاستيعاب إذ لم يُحدَّد وقت معين لتحصيل هذا الفن أو ذاك من فنون العلم والأدب ، وتُرِك الأمر تمامًا لقدرة كل طالب أو حتى ينالوا إجازاتهم المدرسية وقد ظلت الدراسة في الأزهر تتبع هذا النظام إلى وقت قريب نسبيًّا . وتفريد التعليم "Individualization" أو تطبيقات مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية .

* * *